الرَّحمة في العلاقة باللّه وفي التعامل بين بني البشر

عبد الرحمٰن السالمي

لم تغب مقولةُ **الرحمة** عن أخلاد المسلمين وأقوالهم، وكيف تغيب وهي حاضرةٌ في القرآن أشدّ حضور، وحاضرةٌ في أقوال الرسول صلواتُ اللّه وسلامُهُ عليه وأفعاله وسيرته؟! لكنّ مباحث الصفات الإلٰهية لدى المتكلّمين لم تكن للرحمة الأولويةُ فيها؛ بل كان جلُّ تركيزها واهتمامها بالعدل الإلٰهي أو العناية الإلٰهية. أما في تعامل الناس فيما بينهم؛ فقد كان التركيز على مفاهيم قرآنية وقيم وفضائل أُخرى مثل المعروف والإحسان. وعندما كان الدارسون يكتبون عن الأخلاق الحسنة قبل الإسلام؛ كانوا يذكرون المروءة، ويذكرون الجُود، وفي الإسلام يذكرون محاسنَ أخلاقيةً إلى جانب المعروف والإحسان، مثل الصدق والأمانة والزهد في الدنيا، وإكرام الوالدين، والسلام على من نعرف ومن لا نعرف، ولذا كان محمد بن عبد الملك الزيّات ـ الوزير المعروف أيام العباسيين ـ يرى الرحمة في التعامل بين الراعي والرعية «خَوَراً في الطبيعة»، وربما عاد ذلك إلى الاعتقاد بأن الرحمة صفةٌ

للّه ﷻ، ولا تكتمل في أحدٍ من البشر. وعلى أي حال لم تقع الرحمةُ بوصفها قيمةً في الفكر والسلوك، بل ظلّت في الأغلب الأعمّ عهداً من اللّه سبحانه لعباده: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: 12]؛ فالرحمة صفةٌ إلٰهيةٌ، والرحمة عهدٌ ووعدٌ من اللّه لعباده الصالحين، وللخطّائين الذين يتوبون فتنالهم رحمة اللّه.

ويمكن استثناء المفسِّرين، وكُتّاب النوع الأدبي المسمَّى: تهذيب الأخلاق، وبعض الصوفية؛ ففي كتب التفسير هناك استفاضةٌ عند شرح الآيات القرآنية المتعلّقة بالرحمة، مع الاستمرار في إبراز الارتباط الوثيق بين الرحمة والعمل الصالح؛ بحيث لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر، فالذين يعملون الصالحات هم الذين يستحقّون رحمة اللّه عند مفسِّري العدلية. أما عند المفسِّرين من التيارات الفكرية والاعتقادية الأُخرى؛ فإنّ الذين يستحقّون الرحمة هم أولئك الذين يخطئون ويتوبون. وتتقدّم لدى مفسِّري بعض المذاهب الاعتقادية اعتبارات الاعتقاد المذهبي، أو صحة الاعتقاد بحسب عقائد الفرقة؛ مثل القول بشرعية الراشدين، أو الولاء لآل البيت، أو التنزيه الإلٰهي، أو إثبات القدر؛ فعند هؤلاء تتقدم اعتبارات الاعتقاد على العمل الصالح أو أداء العبادات. وفي أعمال كُتّاب الفضائل وتهذيب الأخلاق هناك تأكيدٌ على قيمة **الرحمة** بين الناس؛ لكنّ هذه الفضيلة قائمة أو تابعة لتزكية النفس، بحيث تُصبحُ الرحمةُ خُلُقاً، وتقترنُ بخلالٍ حسنةٍ أُخرى. ومع ذلك فإن لدى المتأثرين بالموروث الفلسفي الكلاسيكي الفضائل الرئيسة الأربع وليس بينها الرحمة، التي من سِماتها الأخلاقية التعاطُف بين الناس، أو مبادرة الناس إلى التضامُن مع ضعفائهم أو مساعدتهم، أما لدى كُتّاب الأخلاقيات الشعبية فإنّ الرحمة واردةٌ؛ لكنها في موقعٍ متأخر. أما الصوفية الذين يَنْشُدون القُرب من اللّه ومعه فللرحمة موقعٌ بارزٌ في تجاربهم الذاتية؛ وهي حاضرة في خطرات ابن عربي وجلال الدين الرومي وابن الفارض وأبو مسلم البهلاني؛ لكنهم كانوا يتجاوزونها دائماً باتجاه مقام الرضا أو مقام المحبة أو أحوال الشطح.

إنّ هذا لا يعني أنّ المسلمين ـ على اختلاف مذاهبهم وتوجّهاتهم ـ لم يدركوا موقع الرحمة الإلٰهية في المنظومة الإسلامية؛ بَيْدَ أنّ معظمهم في الأزمنة الكلاسيكية كانوا سُرعان ما يتخطَّون ذلك إلى مواقع أُخرى أو أحوالٍ أُخرى، تشكّل أو تكون بمثابة الوسيط أو الوسيلة بينهم وبين المولى ﷻ؛ في حين ظلّت الرحمة الإلٰهية معروضةً على كلٍ منهم وعلى جماعتهم بالمباشر وعن قرب: ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: 60]، ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: 16]. بل هناك ما يمكن عدّه إغراءً بدعوتهم إلى صفقةٍ أو عقدٍ مجازي هو أبلغُ وأكثر معنىً من الحقيقي: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ...﴾ [الصف: 10]. وإلى عرض الشراكة المُربح دائماً لأنه مع الرحمن، هناك ما هو أعظم من ذلك، وهو عدّ القرآن أنّ الإيمان والعمل الصالح هو بمثابة القرض، نعم القرض أو الدَّيْنِ الذي يقرضه العبد للرحمن: ﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ...﴾ [التغابن: 17]. فالإنسان هو المُقْرِض، وهو سبحانه المقرَض؛ فإن لم تكن الرحمة هكذا، فكيف تكون؟

إنّ المهمَّ أنه في الأزمنة الحديثة ظهرت الحاجة للتجديد في فِقه الدين، ويرجع ذلك إلى أنّ ترتيبات العيش اختلفت، وداخلتها متغيراتٌ كثيرةٌ تحت وطأة صدمة الغرب، ولذلك كان لا بدَّ من تغيراتٍ في فِقه الدين لإمكانية النظر في المتغيرات أو النوازل الفقهية، وإعطاء الشرعية للتجديد والملاءمة والانضباط. وفي حين رأى بعضهم أنّ المطلوب فِقهٌ جديدٌ من طريق فتح باب الاجتهاد؛ رأى آخرون أنّ المطلوب علمُ كلامٍ جديد، على أساس أنّ تغيير الرؤية له جانبٌ اعتقادي. وعلى أي حال، ومنذ البداية برزت وجهتا نظرٍ في طبيعة العلاقة بالغرب: أهي علاقة مواجهة أو ينبغي أن تكون؟ أم هي علاقة استتباعٍ واستمداد على كل المستويات؟ وبالطبع لم يجب أحدٌ بتفضيل المواجهة التي كثرت فيها الغَلَبات، كما لم يُجب أحدٌ بضرورات الاستتباع. لكنّ الواقع كان يفرض نفسه، فكان ساعة مواجهة، وساعة مسالمة. والفتوى الدينية بقدر ما تُظهر مرونةً تُظهر أيضاً ثباتاً إلى حدّ الجمود أحياناً. ولذلك علاقةٌ بالفعل بالمذهبيات التقليدية الصلبة، وعلاقةٌ بكراهية الغرب المستعمر.

لقد أمكن فتح باب الاجتهاد، ورفع أنـاسٌ صوتهم بالدعوة لعلم كلام جديـد، وتحققت عبر العقـود السـتة الماضية نجاحاتٌ جزئيةٌ في شـتى الميادين، وبخاصـةٍ في مجـال الاجتهاد الفقهـي؛ بَيْدَ أنـه كانت هناك تداعيات طرأت على غير موعدٍ وتجلّت في الحركات والأحزاب الإسـلامية التي دخلت على فِقـه الدين، ودخلت على التجديـد فأحالته إلى تأصيل، واشـترعت لمسـألة الترابط بين الدين والدولة، ولاسـتخدام الدين في مواجهة الدول والمجتمعات والمؤسسات الدينية، التي رأتها إسلاماً رسمياً مصنوعاً. ولم يطل الأمر حتى حصلت تفجراتٌ باسم الدين، مسؤول عنها شكلان جديدان من أشكال التأصيل والتشـدّد، هما: الحزبي والقتالي أو الجهـادي. فصـار الإسـلام مشـكلةً عالمية، ولذلـك تجـددت الحاجة لاستدراك ما فات النهضويين والإصلاحيين أو ما لم يستطيعوا إنجازه من تجديدٍ في فِقه الدين، لجهات سلامة وسكينة الأديان والأوطان، وتصحيح العلاقة بالعالم.

لقـد نهضـت مجلـة التسـامح/التفاهم منذ مطالـع القـرن الحادي والعشـرين بثلاث مهمات: القراءة الجديدة للقرآن، وتجديد فِقه الدين في علائقه بفِقه العيش، وتوسـيع النظرة والنظر إلى العلائـق بالآخَر المحلي والإقليمي والعالمي. وكان من ضمن ما سعينا ـ مع زملاء كثيرين إلى تعميق النظرة فيه ـ مسألة تدافُع القيم، ومسـائل الرؤى الأخلاقية الجديدة. وقد بدأنا من القرآن في إعادة قـراءة المصطلحات/المفاهيم وبالعكس. ـ ومن ضمن ذلك مفاهيـم التعارُف والمعـروف والعقل والعـدل والأخلاق. وكان هناك بين الزملاء مَنْ حاول البدء من صفات الله ﷻ بوصفها قيماً. وهناك من قارن أخلاقيات الإسـلام بأخلاقيات الأديان. وهناك ثالثاً من دخل من مدخل الإعلان العالمي لحقوق الإنسـان والإعلانات الأُخرى. وكنا في ذلك إنما نقرأ القيم القرآنيّة والنبويّة في ضوء قيم الديانات وقيم الإعلانات أو العكس. وكان القصدُ من وراء ذلـك تنميةَ التجديد في فِقه الدين للتوصل إلى المشتركات أو الأخلاق العالمية.

وقد رأينا ـ في خضمّ محاولات العنف من جهة، والإسلاموفيا من جهةٍ ثانية ـ أن ننظر في العلاقات والمخارج، ودائماً من منطلق البحث عن الفهم الجديد والتجاوز، واستعادة السكينة في الدين، والسلام مع العالم. وبعد قيم المساواة والتعارف والمعروف والخير العام، كان من الضروري الدخول على ملفٍ رئيسٍ في فهم الدين قديماً وحديثاً، وهو ملفّ **الرحمة** أو موضوعها. وهذا هو ملفّ هذا العدد المخصص لهذه القضية الخطيرة؛ لأنه يتعلّق بثلاثة أمور: الرحمة الإلٰهية وموقعها في القرآن والإسلام، والرحمة بوصفها علاقات بين الناس، والرحمة أخيراً بوصفها شبكة علاقات وتراحُم في الصلات مع الأديان وبني الإنسان. والرجاء أن يُسهم ذلك كلّه في كشوف الرؤية القرآنية للرحمة، ورؤى الرحمة في المنظومات الكلاسيكية، وفي الحاضر: إمكانيات الرحمة في توليد ظروفٍ أفضل لاستعادة السكينة في الدين، وتصحيح العلاقات بالعالم.

إنّ المهمة صعبةٌ في ظلّ الابتزازات والاستنزافات، وصعبة في مجال اجتراح الأفكار الجديدة لفِقه الدين ومهماته، وصعبة أخيراً إذا كان المراد الإسهام في ترتيبات منظومات القيم، التي نتطلع من خلالها إلى مستقبلٍ آخر للأديان وفعالياتها المنسَّقة في مستقبلٍ آخر للعالم.